

## الفضل الخامس

### الدين والتعليم

خضوع الحياة الاجتماعية للدين :

كان الصراع بين المسيحية والوثنية حاداً عنيفاً منذ القرن الأول للميلاد ، ولقى المسيحيون كثيراً من ألوان التعذيب والمحن إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحية وأصبحت الدين الرسمي للدولة . ومنذ القرن الرابع الميلادي وصروح الوثنية تنهار وتضيق دائرتها وبتشر الإيمان بالله خالق كل شيء في أوروبا وفي غرب آسيا وفي شمال إفريقيا ، وهى جملة العالم المعروف في ذلك الزمان ، وبقيت جزيرة العرب يعبد أهلها الأوثان ويسجدون للأصنام ، وظلت ربوع فارس تستضيء بهياكل النار .

وشهد العالم في مستهل القرن السابع ظاهرة جديدة شيعت وثنية العرب وبجوسية الفرس إلى الفناء الأخير ، تلك الظاهرة هى الديانة الإسلامية بما حملت معها من هدم للآلهة المصنوعة وتوحيد لله الواحد القهار . ولكن الإسلام ببساطته وروحه العملى واتجاهه الواقعى كان سريع الانتشار ، فلم يمض زمن طويل حتى كانت أجزاء العالم المعروف تخضع للأديان الثلاثة : الإسلام والمسيحية واليهودية .

ولم يكن من السهل أن يتقبل الناس من عهد إلى عهد دون حاجة إلى ما يشبههم في العهد الجديد ، ويهدم العهد القديم . والانتقال من القديم إلى الجديد هو الثورة بعينها ، تحمل بين طياتها معاول الهدم وبذور البناء . وفى النفس حنين فطرى إلى الماضى الذى يمثل بنيان الحياة الأولى ، وسلطان التقاليد هو سلطان الزمان . لهذا قضى التامس زمناً طويلاً يلتفتون إلى الماضى ، ويعودون إلى الذكريات الغابرة فيتمثلون الآلهة فى أوثانها ، فينهض المؤمنون لإخفاة أصوات الملحين وآراء

الزنادقة الكافرين . واستعمل أهل الإيمان في حربهم سلاحين : لسان الحق يزهد الباطل ويشيد بآيات اليقين ، ويقيم الحجة على المخالفين وأهل العناد ، والسلاح الثانى سيف القوة يكسب الأفواه ويعذب الكافرين .

بذلك كان الدين فى الغرب والشرق هو الشغل الشاغل للأذهان ، واستمرت المسيحية والإسلام فى حربهما للكفر والإشادة بالإيمان طوال القرون الوسطى . وأخذ المسلمون كما أخذ المسيحيون يلتفتون أبناء الأجيال أسرار الدين وحكمة العقيدة ، ويطبعون الناشئة على الدين الجديد عن طريق التعليم .

تلك هى البيئة الاجتماعية التى استنارت بضوء الدين ، ونور الإيمان واليقين ، فخضع الناس فى كل عمل من أعمالهم الظاهرة ، وفى كل نزعة وكل اختلاجة باطنة لتعاليم الدين .

ما الدين الإسلامى وما عقيدته وأسراره ، ودعوته وأعماله ، وما الديانة المسيحية علماً وعملاً ؟ هذا هو الذى شغل أذهان المفكرين فى ذلك العصر .

واختلف رجال الدين وأصحاب رأى وقادة الفكر فى النظر إلى الدين وشرح أصوله وبيان محتلف مناحيه لذلك نرى أن كل مفكر بدأ يعرض العقيدة الإسلامية على النحو الذى يعتقد أنه الحق والصواب . فلا يخلو كتاب فى الفقه أو الحديث أو التاريخ أو الأدب أو الفلسفة من مقدمة تفصح عن عقيدة صاحب الكتاب ، وقد تطول هذه الخطبة وقد تقصر ، ولكنها على أى الحالات تبدأ بالبسملة والحمد . فتذكر اسم الله الرحمن الرحيم ، شهادة بالتوحيد واعترافاً بالإيمان والتسليم .

وهكذا بدأ القابسى بذكر اسم الله ، ثم أخذ فى شرح الإيمان والإسلام . والكلام فى الإيمان والإسلام هو بيان لما يفهمه القابسى عن الديانة الإسلامية ، وشرح للعقيدة الإسلامية على طريقة أهل السنة . وفى ضوء هذه الحدود ينبغى صبيان أن يفهموا الدين ، وينبغى للمسلمين أن يقوموا بالتعليم .

ولم يكن تفصيل القول فى الإيمان والإسلام أثراً من التقليد الأعمى الذى يقوم به بعض الكتاب مقتفين أثر السابقين وعادة الأوائل ، كما كان يفعل الشعراء فى

الإسلام من ابتداء قصائدهم بالبكاء على الأطلال والدمن كصنيع الشعراء في الجاهلية ، ولكن القابسي اضطر إلى إعلان الرأي عن الإيمان والإسلام لما بين الدين والتعليم من صلة وثيقة ، بل صلة ضرورية ، هي علاقة الأصل بالفرع والغاية بالوسيلة .  
وهي صلة لم يصنعها القابسي ، ولم يفرضها على التعليم فرضاً ، ولكنه استمدّها من الحياة نفسها ، حيث كان الدين سائداً في عصره ، كما أملفنا القول ، في كل لون من ألوان الحياة الاجتماعية .

### العقيدة الإسلامية عند أهل السنة :

غير أن ماهية الدين كانت موضع خلاف بين المسلمين . وقد استطارت الفتن بين أهل المذاهب المختلفة إلى درجة أنهم كانوا يكفّر بعضهم بعضاً .  
وعقيدة الديانة الإسلامية كما يفهمها القابسي ، وكما يريدّها وكما ينبغي أن تدبّع في الناس عن طريق التعليم تلخص في خمس :  
الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والاستقامة ، والصّلاح .  
فالدين عنده نظريتهى إلى عمل . وليس الدين هو الإيمان فقط أو الإسلام فقط ، أو الإحسان والاستقامة والصّلاح فحسب ، وإنما هو كل ذلك مجتمعاً .  
فالشخص الذى يتحلل الإسلام ينبغي أن يكون مؤمناً ومسلماً ومستقيماً ومحسناً وصالحاً .

هذا الطريق في فهم الدين يختلف عن رأى كثير من أصحاب الفرق الإسلامية الذين نظروا إلى المسلم من جانب واحد لا من هذه الجوانب مؤتلفة . وعندنا أن القابسي لم يضع العقيدة الدينية أو مبادئ الدين في ناحية وأداء المسلم لها في ناحية أخرى ، ولكنه مزج بينهما ونظر إلى الدين في سلوك المسلم ، أو نظر إلى سلوك المسلم في دينه ، وهذا الاتجاه في التفكير هو الذى يجعله يدمج الإيمان في الإسلام ولا يفصل بينهما .

هذه النظرة تركيبة لا تحليلية .

فهى تركيبة لأنه يجعل سلوك المرء وحدة لا تتجزأ ، بل أكثر من هذا يوحد بين

سلوكه الخارجى الظاهر ، وبين إيمانه الباطن وعقيدته الداخلية ، بين التصديق بالقلب وعمل الجوارح ، بين الإيمان والإسلام .

أما غيره من المتكلمين والفقهاء فقد حللوا المعانى المنطوية تحتها أعمال المسلم فى ظاهره وباطنه ، وقسموا الأعمال المختلفة إلى كباثر وصغائر فيما يختص بالمحرمات ، ونجاوزوا عن الصغيرة وكفروا مرتكب الكبيرة ، واختلفوا فيما بينهم على هذا التقسيم اختلافاً كبيراً .

وعندنا أنهم بهذا التحليل قد جزءوا شخصية المسلم ، وتكلموا لا عن شخص يعمل ، بل عن معان منفصلة لم يرتفعوا بها إلى الوحدة التركيبية الواجبة بعد التحليل الجلى .

وكثير من فقهاء أهل السنة يميزون بين الإيمان والإسلام ؛ وعندهم أن الإيمان هو التصديق الحاصل فى القلب ، وأما الإسلام فهو إظهار الإيمان والإعلان به . فكل مؤمن مسلم ؛ لأن من اعتقد الإيمان فى الباطن فهو معلن به فى الظاهر ، وليس كل مسلم مؤمناً ؛ لأن المنافق والزنديق يظهران الإسلام ويعتقدان الكفر ، فالإسلام أعم من الإيمان<sup>(١)</sup> .

وبينما أولاً أن نقرر رأى أهل السنة فى هذه المسألة لما لها من أثر فى الموضوع الذى نعالجه وهو موضوع التعليم ، والعالية عندهم أن الإيمان والإسلام والدين عبارات عن معنى واحد ، كما هو عند البخارى<sup>(٢)</sup> ، ثم أضاف الكرماني فى شرحه لحديث الإيمان والإسلام أن قد « اضطربت أقوال العلماء فيه قديماً وحديثاً » وقال عفى السنة : جعل النبي ﷺ الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال ، والإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان والتصديق بالقلب ليس من الإسلام ، بل ذلك : « تفصيل لجملة هى كلها شيء واحد وجماعها الدين » .

فالقابسى على هذا الرأى يجعل من الدين وحدة ، ومن الإيمان والإسلام جملة

(١) مقدمات ابن رشد ص ١٨ .

(٢) الكرماني شرح البخارى : كتاب الإيمان .

لشئ واحد .

والإيمان والإسلام جاء بيانهما في حديث الرسول المشهور ، فالإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإسلام هو العبادة التي تجتمع في إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت .

على أى شكل تكون هذه العبادات ؟

إنها مفروضة على أى الحالات ، ولا محل للبحث في تاركها . وإنما السؤال أيؤديها المسلم كيفاً اتفق ، أم يقبل عليها ويتفق فيها حياته ؟

يطالب القابسي أولاً بإحسان عبادة الله في كل ما يتعبد الإنسان ، وذلك يكون بالإخلاص في هذه الأعمال ، على أن يذكر الإنسان الله حين العبادة كأنه يراه ، فإنه لم تكن تراه أيها العبد فإنه يراك . وهذا هو المقصود الصحيح من ذكر الله لا كما يفعل المسلمون في العصر الحاضر في حلقات الأذكار يرددون فيها اسم الله ترديداً آلياً ، وينسون بعد ذلك المعنى السامى من ذكر الله وهو الرقابة على الأعمال . فالغرض من الإحسان هو نوع العبادة التي يؤديها المرء خالصة لله تعالى .

أما الاستقامة فهي مداومة المقام في الدين ، لا ينكب عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا يلتزم منه ما لا يطيقه ، فالدين يسر . والقابسي يجرى مع روح الإسلام الواقعى الذى ينشد التوسط ، ويلتزم الحدود البشرية ، وللإنسان بعد ذلك أن يزيد في العبادة بما يطيق . وهذه هي صفة الصالحين ، وقد رتبهم القابسي درجات أدناها أن يسلم العبد من الخطايا وأوسطها الاقتصار على أداء الفرائض واجتناب المحارم مع حسن العبادة ، وأرفعها أداء النوافل بعد استكمال الفرائض وهؤلاء هم الأولياء « فما سلم العبد من الخطايا فهو من الصالحين ، وما زاد بعد ذلك من طاعة ربه زاد خيراً »

١٤ - ١

فنحن نرى أن القابسي يشرح الدين بما يلائم المجتمع بأسره ، ويتفق مع الطبيعة الإنسانية دون مغالاة أو إسراف .

### غلو المتكلمين والمتصوفة :

وطائفة المشرقين في الدين هم أهل التصوف ، وهم متفاوتون في مقالاتهم عن العبادة ، فالشهرستاني يشدد التصوف مع الاعتدال ، مع أنه على مذهب الأشاعرة . قال : إن الإسلام هو المبدأ ، ثم إذا كان الإخلاص معه بأن يصدق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويقر عقداً بأن القدر خير من شره من الله تعالى ، بمعنى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كان مؤمناً حقاً . ثم إذا جمع بين الإسلام والتصديق ، وقرن المجاهدة بالمشاهدة ، وصار غيبة شهادة فهو الكمال . فكان الإسلام مبدأ ، والإيمان وسطاً ، والإحسان كمالاً<sup>(٣)</sup> . فذهب الأشاعرة يوفق بين رأى المعتزلة العقل وبين رأى أهل السنة النقل . ذلك أن المعتزلة في مسائل الاعتقاد لم يقبلوا ما جاء في الكتب والسنة قبولاً أعمى بل أثبتوا الوحدانية والصفات لله بالعقل ، ثم تكللوا في القضاء والقدر كلاماً أثبتوا فيه الحرية للإنسان ، وأن أفعال العباد مخلوقة لهم ، وهذا مادعا الأشاعرة أن يخففوا من هذا التطرف العقل ، ويقفوا من إرادة الله موقفاً وسطاً ، وأن ما يصيب الإنسان فمن الله .

ونحن نرى ألفاظاً جديدة دخلت إلى الإسلام هي المجاهدة والمشاهدة والغيب والشهادة ، وهذه كلها مصطلحات المتصوفة التي استحدثوها ، مما لم يكن للمسلمين الأوائل عهد بها . وقد انتهى أمر المتصوفة فيما بعد إلى فهم الإسلام على نحو معقد ، بلغ من درجة تعقيد أنه أوجبوا معرفة الطريق على قطب من أقطابهم ، وذلك لصعوبة الوصول من غير مرشد يأخذ بيد المسلمين ، ويرتفع بهم في درجات المقامات ، ويختلف الأحوال .

تقدم المعتزلة والأشاعرة وأهل السنة والمتصوفة إلى الشعب يعرضون بضاعتهم العقلية ، فوجد العامة أن ما يلائمهم منها هو بضاعة أهل السنة لسهولة فهمها ، وبساطة عرضها . وخلوها من التعقيد والالتواء ، وملاءمتها للطبائع البشرية

(٣) الشهرستاني ص ٤٦ .

جميعاً ، ففيها العمق لمن يريد التعمق ، والوسط لمن يرغب في التوسط ، والحث على مداومة العبادة لمن يريد الارتفاع إلى درجات الصالحين . ولاتنسى إلى جانب ذلك أن شخصية الرسول حجة في تدعيم الرأي ، وأن الاعتقاد في الآراء يستند إلى شخصية قائلها إلى حد كبير إلى جانب ما في هذه الآراء من قيمة ذاتية ، فاستناد أهل السنة إلى الآيات القرآنية وإلى أحاديث الرسول ، قرهم من أفهام العامة وعقولهم وقلوبهم .

والعمل في الحياة أسبق من الجدل ، وأدعى إلى الفطرة السليمة ، وأبعث إلى الشعور بلذة طبيعية غير مصنوعة .

والناس في حاجة إلى العمل في الدنيا لكسب المعاش ، وإلى التفكير في الآخرة التي تقرر أحوال المعاد ، فهم يعملون لدنياهم ودينهم . على أن الاستغراق في شئون الدنيا مما يصرف عن الدين ويفقد المرء معه نعيم الآخرة . والانصراف التام إلى أمور الدين يبعد الإنسان عن الدنيا فيعجز عن الكسب : بل يعجز عن الحياة . والطريقة المثلى هي الجمع بين الدين والدنيا بما يحقق المصلحة في الجانبين . وسيرة الرسول نفسه خير شاهد على ذلك : فإنه إلى جانب التعمق في العبادة كان يرعى الأغنام ويشغل بالتجارة ، وكذلك كان الصحابة . وفي القرآن إشارة إلى هذا الجمع بين شئون الدين والدنيا في أكثر من موضع : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا» .

وجدل المتكلمين يبلبل الأفكار ، ولاينتهي الجمهور منه إلى الاطمئنان الديني ، وبعد فهو جدل لانهائية له . وطريقة أهل التصوف تدفع إلى استغراق في العبادات يصرف عن الكسب . وأحوج الناس إلى تحصيل القوت هم العامة ، فلا ضياع لهم ولا مال موروث فإذا مال العامة مع المتكلمين أضاعوا دينهم ، وإذا تصوفوا ضيعوا دنياهم . أما مذهب أهل السنة فإنه يثبتهم في العقيدة ، ويقدم لهم الدين في صورة بسيطة ، ويضمن لهم سلامة الدين . وهو إلى جانب ذلك لا يصرفهم عن العمل بل يحثهم عليه ويرتب لهم قواعد السلوك ووجوه الكسب الحرام والحلال .

ولم نذكر في هذا الصدد طائفة أخرى من المفكرين هم الفلاسفة ، فهؤلاء كانوا بعيدين كل البعد عن عقل الجاهير ، وقد انطوا على أنفسهم ، وقصروا دراسة الفلسفة على فئة خاصة ، ولم يحاولوا إذاعتها في الناس كافة لمعرفتهم بصعوبة الآراء الفلسفية على الأفهام ، ونستثنى من الفلاسفة إخوان الصفا الذين تقربوا إلى الجمهور برسائلهم المعروفة .

فسمو مذاهب المعتزلة العقلية ، ومغالاة المتصوفين في مسالكهم الروحية ، وصعوبة الآراء الفلسفية ، كل أولئك قرب بين أهل الحديث وبين العامة ، وهى استجابة طبيعية لتأثير مذهب أهل الحديث الملائم لنفوسهم . ولهذا كان تعليم الشعب في أيدي من يفهمون الشعب ويفهمون عقلية ونفسية .

وقد عنى الفقهاء من أهل السنة بالتعليم ليشب العامة على معرفة الدين علماً وعملاً . لأن معرفة الدين لا تتم إلا بنوع من التعليم . سواء أكان هذا التعليم صادراً من الوالد إلى أبنائه بالتلقين ، أو أخذاً عن شيخ بعينه يتطوع لتعليم الصبيان شئون دينهم . وفي كلتا الحالتين لا يتحقق نشر الدين بين جميع الناس ، لانصراف الآباء إلى أعمالهم وقلة من يتطوعون بالتعليم ، لهذا أجاز الفقهاء قيام المعلمين للتعليم بالأجر .

والتعليم الذى نقصده هو تعليم الصبيان ، لأننا بصدد الكلام عن تعليم الصبيان فقط . ونوع التعليم هو الدين لأنه المقصود في ذلك العصر .

ولم يكن من السهل على التكملمين التعمقين في فهم العقيدة الإسلامية أن يقوموا بتعليم الصبيان . ولم يكن جدلهم مما تستسيغه هذه العقول الناشئة . وطريق المتصوفة وعمر يصعب سلوكه على الرجال ، وهو مستحيل على الصبيان .

لهذا انتهى تعليم الدين الصبيان إلى أيدي أهل السنة .

ولم يحاول أهل السنة تغليب مذهبهم بالقوة أو العنف . أو أن يفرضوه فرضاً على الناس ، وإنما نجحوا حين أخفق غيرهم ، لقرب مذهبهم من البساطة وبساطة الفطرة .

والتعليم على مذهبهم مخالف بطبيعة الحال لألوان التعليم التى صورها أصحاب

المذاهب الأخرى ، والتي نعرض لها في فصل آخر ، لنبين أن التعليم ظل للمذهب العقلي أو النقل الذي يعتقد صاحبه .

ويرجع السرفى وقوع تعليم الصبيان في أيدي أهل السنة إلى أسباب كثيرة ، منها أن كثيراً من المفكرين في الإسلام ترفعوا عن تعليم الصبيان ، وتركوا هذا الأمر لغيرهم ، وقد صرح بذلك أصحاب رسائل إخوان الصفا الذين بينوا طريقة التعليم مبتدئين بالشباب في سن الخامسة عشرة .

وأهم هذه الأسباب هو عمق المذاهب الإسلامية الأخرى التي تدق على أفهام الصبيان .

وإذا كان جميع هؤلاء يحنوا في الدين . ونشدوا وجه الحق فيه ، فإن أهل السنة جمعوا بين الدين وبين الحقيقة على وجه وافقهم على الجمهور ، لأنه يقع في طوق المقدور . ويتفق مع هذا الرأي الغزالي الذي قال عن المعتزلة : « من أشد الناس غلواً وإسرافاً طائفة المتكلمين كثفروا المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا . ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حررناها فهو كافر . فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً وجعلوا الجنة وفقاً على شذمة يسيرة من المتكلمين » (٤) .

والغزالي يضع مقام العوام في مرتبة أدنى من مرتبة النظار ، وأن الحق في هذا المقام هو : « الاتباع والكف عن تغيير الظواهر رأساً .. وحسم باب السؤال رأساً . والزجر عن الخوض في الكلام والبحث » (٥) .

ورأى الغزالي جزء من مذهبه في التصوف ، لأن حد الكفر والإيمان عنده لا يتجلى للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحسبها ، بل إنما ينكشف ذلك لقلوب : « طهوت عن وسخ أوضاع الدنيا أولاً . ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ، ثم نورت بالذكر الصافي ثالثاً ، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعاً . ثم زينت

( ٤ ) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٩٧ ، من مجموعة في كتاب الجواهر الغزالي من رسائل الإمام

الغزالي - مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤ .

( ٥ ) الرسالة السابقة ص ٨٨ .

بملازمة حدود الشرع خامساً ، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة <sup>(٦)</sup> .  
 وإذا كان الغزالي قد عاب على المتكلمين إسرافهم في مطالبة العوام بمعرفة أسرار  
 الإيمان بأدلة عقلية يصعب على أذهان العامة . بلوغها لقصور أنفهامهم ، فإننا نعيب  
 على الغزالي وعلى المتصوفة أن يقصروا طريق الإيمان على الكشف والصفاء ، مما  
 لا يتيسر للدهماء .

وقد نشأ عن وقوع تعليم الصبيان في أيدي أهل السنة نتائج كثيرة في الحياة  
 العقلية للمسلمين .

وأهم هذه النتائج أن صبيان العامة نشأوا ولا يعرفون من الدين إلا ما لقنهم إياه  
 شيوخ أهل السنة . والآثار التي يحملها الإنسان معه من الصبا تكون عزيزة عليه .  
 ويصعب محوها . وقيل في الأمثال التعلم في الصغر كالنقش على الحجر . حتى إذا  
 شب ، وخرج من الكتاب ، ونزل إلى معترك الحياة . واطلع صور المنازعات العقلية  
 الدائرة حول الأبحاث الدينية ، اتجه دون شعور إلى الناحية التي عرفها في صباه ،  
 وتعصب للرأي الذي صحبه مع الحياة . وقد كان التراع عنيفاً حاداً بين المتكلمين  
 والفلاسفة وأهل السنة . المتكلمون والفلاسفة يغلبون العقل على النقل ، ويبحثون  
 المسائل في كثير من حرية الفكر ، وهم على استعداد لتجريح آراء السلف إذا أثبتوا  
 بالعقل فسادها . على أن الانتصار في حلبة هذه المعارك العقلية كان يحتاج إلى سند  
 من الجاهير ، وتأيد من العامة ، لأنهم في آخر الأمر هم أداة الحياة للرأي . وقد  
 يكون المتكلمون على حق ، وقد يكون الفلاسفة كذلك ، ولكن الحق من غير قوة  
 تسنده مصيره إلى الانهيار . وهذه هي طبيعة الحياة . وقد وقف العامة من المتكلمين  
 والفلاسفة ، بل من كل صاحب رأي جديد حرم موقفاً شديداً أخاف المفكرين ،  
 وجعلهم ينظرون على أنفسهم خشية غضب العامة وثورة الجاهير ، والثورة تلتهم  
 ولا تعرف رحمة ولا عقلاً . فإذا كنا في القرن السادس الهجري نجد تعصب الجاهير  
 قد بلغ الأوج فأحرقت كتب ابن رشد وأصيب بمحنة عظيمة . وانتصر الغزالي لأن  
 العامة كانت من ورائه تشد أزره وتعضد رأيه بالعنف والقوة . وأغرب من ذلك

مهاجمة أهل السنة للمنطق لأن الفقهاء لم يعترفوا بمنطق اليونان ، ومن أقوالهم :  
 « أن هذا الشافعي وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم  
 لمن نظر فيها ، هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه ، وهل صح لهم علمهم بدونه  
 أم لا ، بل هم كانوا أجل قدراً وأعظم عقولاً من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان  
 المنطقيين » (٧) .

وبهذه الوسائل العنيفة من الهجوم والظعن ، أبطل فقهاء أهل السنة الاشتغال  
 بما عدا المعروف عن الأئمة ، واستمع لهم العامة والجمهور ، لأنهم نشوا على هذه  
 التعاليم منذ الصغر في الكتابيب .

فإذا شئنا أن نبحث في علة ركود الحركة العقلية عند المسلمين بعد القرن  
 السادس بعد أن ظلت هذه الحركة قوية مزدهرة منذ القرن الثاني في التأليف  
 والترجمة في شتى العلوم والمعارف ، بما كان يبشر بأن يحمل المسلمون لواء العلم  
 والحضارة في العالم أجمع ، فينبغي أن نتلمس أسبابها في بدورها الأولى عند  
 الصبيان الذين انطبعت نفوسهم على طريقة خاصة في فهم الدين يصعب التحول  
 عنها .

ومن النتائج التي ترتبت على اضطلاع أهل السنة بالتعليم العام جمود التعليم  
 ووقوفه عند طريقة لا يتطور عنها ، والسرف في ذلك أن غايته القصوى هي حفظ  
 القرآن ، وغرضهم هو تلقين أصول الدين ، مع الابتعاد عن تعليم أى مسألة من  
 مسائل الدنيا إلا ما قصت به الضرورة . ونقول إنه انتهى الحال في الكتابيب بصورة  
 عملية إلى حفظ القرآن والكتابة والقراءة فقط . ولطول العهد بهذه الطريقة التي  
 دارت مع الزمان ، واتبعها الناس قرناً بعد قرن ، آمنوا أنها الطريقة الوحيدة التي  
 ينبغي اتباعها . ولما كان القرآن ثابتاً لا يتغير ، ولما كان الصبيان لا يتعلمون في الأغلب  
 إلا القرآن ، فإنك قد تدخل الكتابيب في القرن الرابع ، فلا تجد فيها فارقاً عن  
 الكتابيب في القرن الرابع عشر إلا في بعض أمور شكلية .

### الغرض من التعليم :

الغرض من تعليم الصبيان عند القابسي ، وعند فقهاء أهل السنة جميعاً هو معرفة الدين ، علماً وعملاً .

والقابسي ينظر إلى الحياة ، ولا ينتهي منها إلا وسيلة إلى الآخرة ، فهو يسرف في نظرتة الدينية ، ويجعل الإنسان يستغرق جميع أوقاته وجميع أعماله في سبيل الدين وباسم الدين .

وليس هذا الموقف غريباً عن القابسي وهو التقى الصالح ، الورع الحافظ للقرآن والسنة وأصول الدين وأصول الفقه .

ولم يكن القابسي في حقيقة الأمر إلا مرآة للعصر الذي عاش فيه ، يصف ما يفعل الناس ويشبههم في هذا العمل الصالح . وكان العصر كله عصر دين تغلب على النزعات المادية ، وكان الناس قريبى العهد بالزمن الأول الذى عاش فيه الصحابة والتابعون ، فلم ينسوا ما كانوا عليه من سيرة روحية ترمى إلى ابتغاء مرضاة الله ، والعمل للدار الآخرة .

وتمييز الغرض في الذهن ضرورى لتحديد وسائل العمل ، وكان الغرض من التعليم واضحاً في ذهن القابسي ، وفي ذهن من تقدموه من قبل منذ عصر النبي ، كانوا يقصدون إلى تعليم المسلمين الدين ، مما لا يتيسر إلا بمعرفة بعض المبادئ التى نكتسب بالتعليم .

ومن هذه المبادئ القراءة والكتابة ، على أنها غاية في ذاتها يكمل الإنسان بها نفسه ، بل على أنها سهولة تحصيل عنصر هام من عناصر الدين وهو القرآن ، ولذلك افتدى النبي عشرة من أسرى بدر بتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة . والقرآن هو كتاب المسلمين الذى يجمع في آياته قواعد الدين ، وأسرار العقيدة . وإذا كان لأصحاب الديانات المختلفة كتب سماوية أو غير سماوية ، فإنها لم تبلغ مبلغ القرآن في تأكيد أنه كلام الله وتزليل العزيز الحكيم ، مما يجعله أكثر قداسة ، وأبعد عن الشكوك والريب . وأدعى إلى القبول . ومعرفة القرآن ضرورية لمعرفة الدين ،

حيث لا تتم الصلاة إلا بقراءة شيء من القرآن فيها . والصلاة مفروضة على المسلمين لأنها ركن من أركان الدين . ولذلك يقول القابسي كما يقول الفقهاء : « وقد أمر المسلمون أن يعلموا أولادهم الصلاة والوضوء لها » ويقول أيضاً : « إن حكم الولد في الدين حكم والده مادام طفلاً صغيراً . أفيدع ابنه الصغير لا يعلمه الدين وتعليمه القرآن يؤكد له معرفة الدين » وهذا كله واضح الدلالة في أن الفرض الأول من التعليم هو معرفة القرآن والصلاة ، أي معرفة الدين علماً وعملاً . غير أن القابسي لم ييسط الموضوع على الأساليب الحديثة ، التي تقدم الأغراض ثم تسوق الوسائل لخدمتها ، ولكننا نتلمس الأغراض عنده من خلال ما كتب ، ونقول إن تخصيصه فصلاً عن الإيمان والإسلام ، لم يكن إلا نوعاً من تحديد العرض للتعليم . وتلمس أيضاً غرضه مما كتب عن تعليم البنات ، فهو يريد أن يعلمها القرآن والعبادات المختلفة لأنها فرضت على المؤمنين ذكوراً وإناثاً . ولكنه إذ يقول إن سلامتها من تعلم الخط أنجي لها ، يبين لنا أن غرضه من التعليم هو الاختصار على معرفة الدين ويصحى بتعلم القراءة والكتابة إذا خشي فسادها .

ومن هنا اتصل التعليم بالدين اتصال الوسيلة بالفرض .  
ومن النتائج الهامة التي تربت على هذه الصلة الضرورية ، أن الديانة الإسلامية تسوى بين العباد ولا تفضل عربياً على أعجمي إلا بالتقوى ، ولا تقصر معرفة الدين على فئة دون فئة ، وقد حرص المسلمون من أول الأمر على نشر الدين ، والمساواة بين الناس في مقدار إنسانيتهم . فإلى جانب ما هو موجود في القرآن من النص على هذه المساواة فإن سيرة النبي والصحابة والخلفاء الراشدين ، تبين بطريقة عملية امتناع التفاوت بين الناس في الأقدار والمنزلة الاجتماعية ، على العكس من ذلك ساروا سيرة التواضع والبساطة والإقلال ، مما يجعلهم يقتربون من العامة ، لا من الخاصة أو أوساط الناس . كان النبي يخصف نعله ويرفع ثوبه . وقد ثارت فئة من المسلمين على عثمان بن عفان لأنه ابتنى الدور والقصور مما لم يعهد عن رسول الله ، ذلك لأن حرص المسلمين كان على السبق في المنزلة الدينية . فإذا كان الجميع سواء أمام الله فأفضلهم عند الله أنقاهم . ودار الزمن وأثرى المسلمون وأسلم كثير من

الأعاجم وأقبلت عليهم الدنيا ، وبقي هذا الروح الذى يعبر عنه بالاصطلاح الحديث بالروح الديمقراطية قائماً ، لا يجرؤ أحد أن يخالفه . وما يساعد على انتشار هذا الروح وينع من تغيره ويعمل على بقاءه وتثبيته ، صلاة الجماعة التى يقف فيها الغنى إلى جانب الفقير ، والأمراء إلى جانب السوقة ، لكل هذا لم يستطع أحد من المسلمين أن يدعى احتكار الدين لنفسه ، يبيعه بعد ذلك لمن يريد طلبه ، أو يكون واسطة بين هؤلاء الطالبين وبين الله ، ومع ذلك فقد درجت فى الإسلام فى عصور متقدمة ومتأخرة كثير من النظريات يبنى أصحابها احتكار العلم والدين ، مثل بعض فرق الشيعة ، وإخوان الصفا ، ومتأخرى المتصوفة الذين اصطنعوا نظرية الأقطاب والأولياء يتوسطون بين المرئدين وبين الوصول إلى معرفة الله . ولكن جميع هذه التيارات وأمثالها لاتنفي أن يتعلم الناس جميعاً القرآن والعبادات الشرعية المفروضة كالصلاة والزكاة ، وهى مذهب يتحول إليها المسلمون بعد مرحلة الشباب لاقبلها ، لأن فهمها يحتاج إلى سعة درك وعمق تفكير . ويبقى بعد ذلك أن الصبيان يبنى أن يتعلموا القرآن والصلاة ، وأن تعليمهم هذه المبادئ لايتسع معها الخلاف أو الجدل ، وأهم من هذا كله أن الإسلام يتوجه إلى الجميع فلايد أن يتعلم الجميع . فالديانة الإسلامية فى طبيعتها النظرية من حيث العقيدة ، وفى روحها الذى درج على تفسيره رجال الدين فى عصوره المختلفة ، تدعو إلى نزعة ديمقراطية وتنحو ناحية المساواة .

وقد أثرت هذه النزعة فى التعليم أثراً كبيراً ، إذ أن تأصل فكرة الديمقراطية والمساواة الدينيين ، انتقلتا إلى التعليم أيضاً .

وقد تنبه المسلمون منذ عصر النبى إلى قيمة التعليم فى معرفة الدين معرفة صحيحة . وكان التعليم ضرورياً فى ذلك العهد لحاجة النبى والخلفاء من بعده إلى نشر الإسلام بين سكان جزيرة العرب الذين يدينون بالوثنية ، وبين القرمس الذين يدينون بالمجوسية ، وبين أهل الكتاب ، فلما أسلم أهل تلك البلاد المختلفة خلال قرن أو قرنين من الزمان ، لم تبطل الحاجة إلى التعليم ، لتفقيه الأبناء شئون دينهم المفروض عليهم .

### إلزام التعليم :

وكان التعليم في بدء الأمر تطوعاً في سبيل الله . ثم انتظم التعليم في الكتابات والمدارس . وتناول المعلمون الأجر . فأصبحت المسألة التي تواجه الفقهاء هي البحث في تعليم الصبيان أو أوجب هو أم لا ، وإذا كان واجباً ، فمن هم المكلفون بذلك ؟ وما هو نوع التعليم الذي ينبغي أن يكسبه الطفل ؟ إلى غير ذلك من المسائل الطارئة في الإسلام ، والتي لم يحكم فيها فقهاء العهد الأول في الإسلام ، وهم المتبعون في الأحكام .

والمعروف أنه بعد استقرار المذاهب الأربعة في الأمصار . أصبح باب الاجتهاد عسيراً ، بحيث يحتاج الفقيه إلى كثير من الجراحة في الفكر والاعتداد في الرأي ليخرج على الناس بحكم جديد .

وقد كان القابسي على الرغم من اتباعه الدقيق لشيوخه الفقهاء جريئاً في مسألة من المسائل الاجتماعية التي شق بها الطريق لمن جاءوا بعده . تلك هي مسألة إلزام التعليم التي أحسن عرضها ، وساقها في تطورها مع التاريخ حتى وصل بها إلى العصر الذي يعيش فيه ، إلى أن بسطها الفقهاء الذين خلفوه بسطاً جديداً . ولكنه أحس بها إحساس من يتلمسها التماساً ، ويدور حولها دوران من يشعر بغموض الفكرة . وإلزام التعليم خطاب للمجتمع بأسره لا لبعض الأفراد فيه .

فالقابسي يريد أن يعلم أبناء الشعب جميعاً ، لأنه يريد أن ينشر الدين ولا يحرم أحداً .

ولم يرد في القرآن نص على وجوب التعليم على الصورة التي نألفها الآن ، ولا يوجب الحديث مثل ذلك ، ولم يعهد عن الصحابة والتابعين أنهم أوجبوا على الناس تعليم أبنائهم بإرغامهم على إرسالهم إلى الكتابات ، أو استحضار المعلمين لهم والكتاب والسنة والإجماع هي الأصول التي يرجع إليها الفقهاء في أحكامهم . وليس غريباً أن نجد القرآن خلواً من نص صريح على التعليم ، فلم يكن في العهد الذي نزل فيه القرآن كتابات ، وإرسال الصبيان إليها من الأمور الدنيوية البحتة

التي لا تعرض لأمثالها القرآن ، وإنما يتركها لتصرف العباد .

لذلك احتال القابسي للحكم في هذه المسألة الجديدة التي لم يسبقه إليها أحد .  
وبين أيدينا كتاب ابن سحنون مما دون عن أبيه في التعليم ، فلا نجد فيه ذكراً لهذا الموضوع .

وأدلة القابسي قوية أخاذة تنقلك من فكرة إلى أخرى حتى ينتهي بك إلى أن تعلم جميع الصبيان ضروري واجب ، وأن هذا الوجوب هو الوجوب الشرعي ، على طريقة الفقهاء .

ذلك أن معرفة العبادات واجبة بنص القرآن ، ومعرفة القرآن واجبة أيضاً لضرورتها في الصلاة ، وأن الوالد مكلف تعليم ابنه القرآن والصلاة لأن حكم الولد في الدين حكم أبيه فإذا لم يتيسر للوالد أن يعلم أبناءه بنفسه فعليه أن يرسلهم إلى الكتاب لتلقى العلم بالأجر . فإذا لم يكن الوالد قادراً على نفقة التعليم فأقرباؤه مكلفون بذلك . فإذا عجز أهله عن نفقة التعليم فالمحسنون مرغوبون في ذلك . أو معلم الكتاب يعلم الفقير احتساباً أو من بيت المال .

النتيجة التي يريد أن يصل إليها القابسي هي تعليم جميع أبناء المسلمين أغنياء وفقراء . وهذا هو التعليم الإلزامي بعينه أعلنه القابسي في القرن العاشر الميلادي أي في صميم القرون الوسطى التي كان أهل أوروبا يعيشون فيها مع الجهل والظلام . وقد تركزت هذه النظرية فيما بعد واستقرت عند فقهاء المذاهب فجمعوا طلب العلم فرضاً . في مقدمات ابن رشد<sup>(٨)</sup> . وطلب العلم والفقهاء في الدين من فروض الكفاية كالجهاد أوجبه الله تعالى على الجملة . سئل مالك عن طلب العلم أوجب هو أم لا ؟ فقال : « أما على كل الناس فلا » وروى عن ابن وهب وكان جالساً معه (مع مالك) فحضرت الصلاة ، فقام إليها ، فقال له : « ما الذي قت إليه بأوجب عليك من الذي قت عنه » . قال ابن رشد : وهذا كلام فيه نظر ، كيف يكون طلب العلم على أحد أوجب عليه من صلاة الفريضة ؟ فالملعى عندي إن صحت الرواية أنه أراد ما الذي قت إليه بأوجب عليك في هذا الوقت من الذي قت

عنه ، لأن الصلاة لا تجب بأول الوقت إلا وجوباً موسعاً . إلى أن قال : « وكما يجب على المتعلم التعلم ، فكذلك يجب على العالم التعليم . » إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيانات والمهدي من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

أما الغزالي<sup>(٩)</sup> فقد قسم العلم إلى قسمين : فرض عين وفرض كفاية ، وهو في ذلك يرجع إلى حديث الرسول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » قال : واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصده فقال المتكلمون : هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ؛ وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام ؛ وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ؛ وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم . أما رأى الغزالي فإنه علم المعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها . أما العلم الآخر فهو علم المكاشفة على مذهبه في التصوف . أما العلوم التي هي فرض كفاية فهي تلك التي يلزم معرفتها لكامل الدين كالنحو والعربية والتفسير والقرءات والحساب .

بذلك تطورت فكرة إلزام التعليم ، أو وجوب العلم ، وأصبحت مما يقره فقهاء المسلمين ، ويتداولونه في كتبهم . وفي ذلك يقول صاحب مفتاح السعادة : « اعم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة لثلاث ينقطع عدد التواتر فيه ، فلا يتطرق إليه التبديل والتحريف . وتعليمه أيضاً فرض كفاية ، وهو من أفضل القرب . ففي الصحيح : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . وتعلم القرآن عند الغزالي فرض كفاية أيضاً ، وطاش كبرى زاده يأخذ هذا الرأي ويذهب هذا المذهب<sup>(١٠)</sup>

وتختلف فكرة الإلزام التي نبسطها عند القابسي عنها في الدول الحديثة : ووجه الخلاف راجع إلى تطور النظم الاجتماعية ، وتطور الفكرة عن الدولة ووظيفتها .

(٩) الغزالي في الإحياء ص ١٣ - ١٦ .

(١٠) مفتاح السعادة ومصباح السيادة - طاش كبرى زادة المتوفى سنة ٩٦٢ هـ مطبعة حيدر آباد بالهندج -

والرأى الحديث أن الدولة مكلفة تعليم جميع أبناء الشعب حتى سن معينة دون أجزر ، فالتعليم واجب على الدولة تنفق عليه من خزائنها . ومن ناحية أخرى على الشعب واجب العلم ، وهو واجب قانوني يعاقب صاحبه بالغرامة إذا لم يؤده . ولم تفصل الحقوق والواجبات في العصور القديمة هذا التفصيل . وإنما كانت الحقوق والواجبات كلها دينية ، والعقاب عليها مستمداً من الدين ، ويقوم الحاكم أو الوالي بتنفيذ هذه العقوبات وأشار القابسي إلى شيء من ذلك إذ سأله سائل عن حالة الوالد الذي يمتنع عن إرسال ابنه إلى الكتّاب يتلقى الدين والعلم هل « للإمام أن يجبره » ؟ فأجاب القابسي أن ليس للإمام أن يجبره ، وإنما يوعظ ويؤثم . وإذا قد عرضت المسألة على بساط البحث ، وأوشكت أن تتم أركان الإلزام من ناحية الدولة ، لولا تردد الفقهاء في الحكم ، لأن عقاب الوالد في حالة الامتناع عن إرسال ابنه إلى الكتّاب يحتاج إلى دليل شرعي من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، وليس فيها مثل هذا النص .

على أن المسألة اتجهت وجهة أخرى هي تطوع الأغنياء والأمراء بالإنفاق على الكتّاب وإجراء الأموال عليها لتستمر على الحياة ، وإذا تسرقت اقتتاح الكتّاب ، وإقامة المسلمين فيها بالأجر ، فليس ما يمنع الناس من إرسال أبنائهم إليها . وبحل عمل الأمراء محل الدولة . هؤلاء هم المحسنون الذين أشار إليهم القابسي . وقد كانت هذه العادة متبعة فعلاً بتأثير حث الفقهاء الناس على طلب العلم والتعليم ، والإشادة بفضل العلم .

وفي كتب التاريخ والتراجم إشارات كثيرة إلى المساعدات العظيمة التي قام بها الأمراء لافتتاح الكتّاب .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تطورت الفكرة إلى شيء أسمى من ذلك وأكثر استقراراً وأشدّ ضماناً لحياة الكتّاب ، وفي حياتها حياة لتعليم الصبيان ، تلك هي رصد الأوقاف على الكتّاب والمدارس ، وبذلك تتم حلقات هذه السلسلة الطويلة في تاريخ التعليم ، والجهاد في سبيل نشره وإلزامه ، إذ تبدأ بالتطوع ، ثم تستقر شيئاً فشيئاً مع الزمان حتى تنتهي إلى الوقوف عند الأوقاف المرصودة على التعليم .

### تعليم الإناث :

وتتم هذه الحلقة في إلزام التعليم بإشراك البنت إلى جانب الولد في هذه الفضيلة . وقد أقر القابسي هذا المبدأ لها ، واعترف بحقوقها في التعليم . وهو يقرر ذلك في سبيل الدين ، لأن المؤمنين والمؤمنات مكلفون جميعاً بنص القرآن ، ولا تيسر معرفة الدين إلا بنوع من التعليم .

ولم يكن تعليم المرأة في الإسلام بدعة ، فالمعروف أن كثيراً من النساء نبغن في العلم والأدب والشعر ، وجاء ذكرهن ونوادرنهن في كتب الأدب والتاريخ ، ولكن المسألة هي إلزام تعليمهن لا على سبيل الزينة بل على الوجوب الديني . فإذا أفنى الفقهاء بوجوب تعليمهن بأسانيد دينية ، فليس ما يمنع من تعليمهن كما يتعم الصبيان ، وليس ما يمنع من ذهابهن إلى الكتاتيب في الصغر . فانتشار التعليم في البنات روح جديد لم يكن معهوداً في الزمن الأول للإسلام . أما الذي كان معروفاً في بدء الإسلام ، وقبل الإسلام ، فهو أن عدداً قليلاً يعد على أصابع اليد الواحدة من النساء كن يعرفن القراءة والكتابة ، الأمر في ذلك يشبه عدد الرجال الذين كانوا يقرأون ويكتبون عندما أقبل الإسلام .

عن البلاذري : « قال النبي للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ، ألا تعلمين حفصة رقية التملة كما علمتها الكتابة » . وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية .

ثم عدّ البلاذري بعض النساء الكاتبات منهن « حفصة زوج النبي ، وأم كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد التي قالت : عنني أبي الكتاب » (١١) .

هكذا ما كان من شأن المتعلّقات في فجر الإسلام ، وقد استمرت هذه السنة متبعة جيلاً بعد جيل ، فكان الأمراء يعلمون بناتهم في داخل القصر ويحلبون لهن المعلمين والمؤدبين .

(١١) تروج البلدان للبلاذري ص ٤٥٨ .

ونستدل مما كتبه القابسي أن البنات كن يتعلمن في الكتاتيب حيث قال :  
 « ومن صلاحهم ومن حسن النظر لهم ألا يخلط بين الذكران والإناث ، وقد قال  
 سحنون أكره للمعلم أن يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان . لأن ذلك فساد لهن »  
 ٧٥ - ١ .

واختلاط الجنسين في التعليم من المسائل الشائكة التي واجهها العالم من قديم  
 الزمان ، ولا يزال يواجهها حتى الآن في العصر الحاضر . والأقوال في هذه المسألة  
 متضاربة ، هل نجتمعها في التعليم أم نفصل بينهما ، وأى الأوقات أنسب لفصلها ؟  
 والخشية من فساد البنات لاختلاطهن بالذكور ، جعلت الكثيرين يعلمنهن على  
 حدة قال القاضي عياض في كتاب ترتيب المدارك : « ومن سيرة عيسى ابن مسكين  
 في غير مدة قضائه أنه كان إذا أصبح قرأ حزباً من القرآن ثم جلس للطلبة إلى  
 العصر . فإذا كان بعد العصر دعا بنيه وبنات أخيه يعلمهن القرآن والعلم » (١٢) .  
 ويبقى أن الفقهاء ، ومنهم القابسي قرروا تعليم البنات للضرورة الدينية . وكان  
 البنات يتعلمن فعلاً إما في قصور الأغنياء وهم القادرون على استحضار المؤدبين ،  
 وإما في الكتاتيب لعامة الشعب ، وبذلك ساد مبدأ إلزام التعليم .

ونقول إن الانصراف في العصور المتأخرة عن تعليم البنت يرجع إلى ماسبق أن  
 ذكرناه من الخوف من فساد البنت إذا تعلمت إلى جانب الولد ، مما أدى في نهاية  
 الأمر إلى الامتناع عن تعليم البنات في الكتاتيب . والسبب الثاني هو النصح بعدم  
 تعليم البنت الكتابة والخط خشية فسادها أيضاً . وفي ذلك يقول القابسي :  
 وسلامتها من تعلم الخط أنجي لها ، والقابسي يعبر عن روح العصر الذي بدأ قبل  
 ذلك ، واستمر إلى أن قضى على المرأة بالانزواء داخل جدران البيت . وقبل زمن  
 القابسي نجد هذا الرأي منتشرأ . قال الجاحظ : « لاتعلموا بناتكم الكتابة ، ولا  
 ترووهن الشعر ، وعلموهن القرآن ؛ ومن القرآن سورة النور » (١٣) .

مما سبق يتضح لنا أن معرفة الدين هي الغاية القصوى والمطلوب الأول ،

(١٢) نقلا عن كتاب آداب الملمين لحسن حسني عبد الوهاب ص ٢٢ .

(١٣) البيان والبيان للجاحظ ج ٢ ص ٢ .

وتحقيقاً لهذه الغاية وجب التعليم ومعرفة القراءة والكتابة ، لا في دائرة ضيقة ، بل في أوسع دائرة بحيث تشمل جميع أفراد الأمة ذكوراً وإناثاً .

### مناقشة الغرض من التعليم :

ولم يذكر القابسي من الأغراض التي يبتغيها الإنسان حين يتعلم إلا الغرض الديني .

وقد ذكر خليل طوطح<sup>(١٤)</sup> أن التعليم عند المسلمين كان يرمى إلى أربعة أغراض : غرض ديني ، وغرض اجتماعي ، والتلذذ العقلي ، وغرض مادي . وقسمت السيدة أسماء فهي أغراض التعليم إلى ثلاثة أقسام : غرض ديني ، وغرض عقلي وثقافي ، وغرض نفسي<sup>(١٥)</sup>

وكلاهما يأخذ هذه الأغراض من شتى المؤلفات العربية مثل تعليم المتعلم للزرنوجي ، وجامع بيان العلم لابن عبد البر ، وإحياء العلوم للغزالي ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ، ووسائل إخوان الصفا .

والرأي عندنا أنه لا يوجد أغراض للتربية عند العرب تعهم على وجه الإطلاق ، وإنما الصواب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذي يلائم هذا المذهب . فطريقة التعليم مستمدة من مذهب صاحبها .

والغرض من التعليم عند القابسي ، وهو من فقهاء أهل السنة ، غرض ديني يقصد منه إلى تعلم القرآن ومعرفة العبادات المفروضة .

وقد أوجرنا القول في فصل آخر عن التربية عند العرب ، وعرضنا هذه المذاهب المختلفة ، لنبين أن الاختلاف في أغراض التعليم ووسائله عند المسلمين إنما يرجع إلى اختلاف هذه المذاهب العقلية .

(١٤) التربية عند العرب - خليل طوطح ص ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ .

(١٥) كنت قد رجعت إلى رسالة السيدة أسماء فهي باللغة الإنجليزية وهي التي حصلت بها على درجة الماجستير . والسيدة أسماء كتاب بالعربية ظهر ١٩٤٧ ، بعنوان مبادئ التربية الإسلامية .

على أن القول بأن من أغراض التعليم عند العرب كسب المنزلة الاجتماعية قول جرىء يحتاج إلى دليل .

وقد اعتمد خليل طوطح على ما ذكره ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم «اطلبوا العلم ، فإن كنتم ملوكاً برزتم ، وإن كنتم سوقة عشم » ، وهذا نص عن ابن المقفع ، وهو القائل بعد ذلك : إذا أكرمك الناس بمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالها ، ولكن ليعجبك إذا أكرموك لعلم أو دين <sup>(١٦)</sup> . وقد عقد ابن عبد البر فصلاً في مكان آخر قال فيه : وقد تبين بما ذكرنا أن حب المال والرياسة والحرص عليها يفسد دين المرء .. إلى أن قال .. واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها ، ومن هذا نشأ الكبر والحسد ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره <sup>(١٧)</sup> والدين والدنيا يجتمعان ويفترقان ، فمن طلب الدنيا ذهبت منه الآخرة ، ومن عمل للآخرة أقبلت عليه الدنيا أيضاً . وفي ذلك يقول ابن عبد البر : «وبكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف في الدنيا وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه وطلب شرفا الدنيا لا يجتمع شرف الآخرة ولا يجتمع معه . والسعيد من آثر الباقي على الفاني <sup>(١٨)</sup>»

ولا نريد أن نستقصى جميع كتّاب المسلمين لنصح ما أخذه عنهم الباحثون في التربية والرأى عندنا أنهم جميعاً جعلوا الغاية من التعليم غاية دينية ، وأكدوا هذه الغاية تأكيداً لا يقبل الشك ، وإذا كان بعضهم وجد أن التعليم يحقق أغراضاً اجتماعية أو عقلية أو مادية ، فإن هذه الغايات الأخيرة تأتي في المرتبة بعد الغاية الدينية ، وليست مقصودة لذاتها ، ولم يفهم النص على إشار الدين على الدنيا في جميع الأحوال .

هذا إلى أن البحث في التعليم عموماً يختلف عن البحث في تعليم الصبيان ،

(١٦) جامع بيان العلم ص ٦٨ - الجزء الأول .

(١٧) جامع بيان العلم ص ١٨٠ .

(١٨) ص ١٨٣ .

والغرض من تعليم الصبيان هو معرفة الدين قبل كل شيء . ولذلك أوجبوا تعليمهم .

وإذا نظرنا إلى المواد التي كان يتعلمها الصبيان في الكتاتيب تبين لنا أن الغاية التي حددت هذه العلوم هي الغاية الدينية ، وأول هذه العلوم هو القرآن الذي يحفظه الصبي قراءة وكتابة ، فالكتابة ليست مقصودة لذاتها من حيث فائدتها الاجتماعية أو العقلية أو المادية ، بل لسهولة حفظ القرآن وتقييده ، للرجوع إلى المكتوب المقيد في أى وقت يشاء الصبي ، والنحو والعربية الغرض منها قراءة القرآن على الوجه الصحيح وحسن فهمه . وقد نص القابسي على أن تعليم الحساب ليس بلامزم إلا إذا اشترط عليه . وقد بحث الفقهاء بعد هذا العصر في تعليم الحساب . واتمسوا له علة دينية هي الفائدة في معرفة الموارث وقسمتها كما هو وارد في الشرع ، فإذا كانت هناك ضرورة لتعلم الحساب فهي إذن ضرورة شرعية لا اجتماعية أو مادية .

لقد بدأ القابسي كتابه بفصل عن الإيمان والإسلام ، واختتمه بفصل في القراءات والكلام عن أفضل المقرئين ، وبهذا يبدأ الصبي مؤمناً مسلماً وينتهي قارئاً للقرآن .